طلقة (٨)

(لحظة صفاء نادرة مع السادات وإسماعيل)

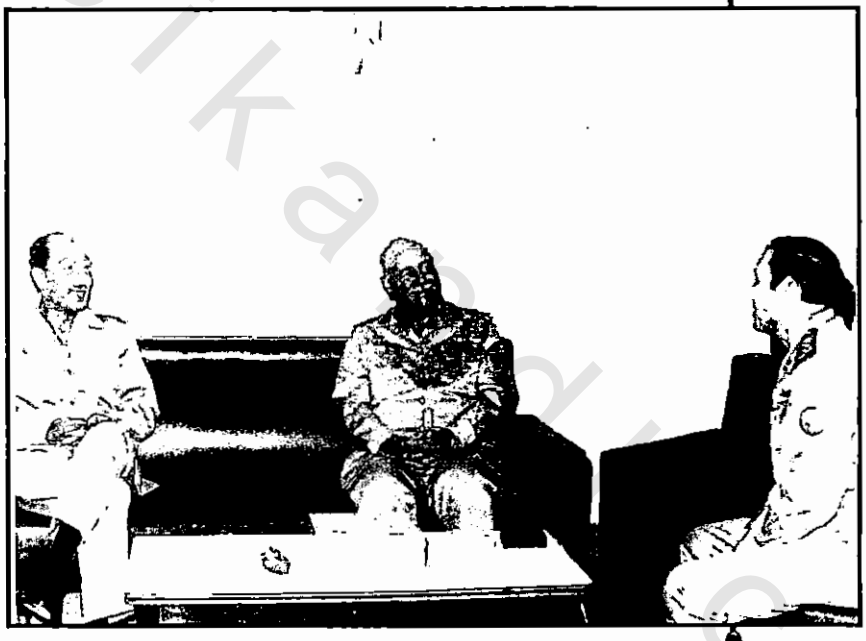

انهزمنا وكسبنا حرب ٥٦ !

obeikandl.com

إنها الحرب يا جمال... هكذا همس أنور السادات إلى جمال عبدالناصر والقطار يعود بهما من الإسكندرية إلى القاهرة بعد الإعلان عن تأميم قناة السويس.. هكذا يقول السادات في مذكراته ولكنه لم يذكر لنا ماذا كان جواب عبدالناصر عليه خاصة أن الجماهير في جميع المحطات بين الإسكندرية والقاهرة قد خرجت مستقبلة في إشارة تأييد لقراره غالبية من الشعب.. وما جرى أن رئيس وزراء بريطانيا، وكان على مأدبة عشاء أقامها الملك فيصل ملك العراق ونوري السعيد رئيس وزرائه، هب منتفضا لكي يتصل بقادة فرنسا وإسرائيل وكانت نصف أسهم القناة ملكا لانكلترا ونصفها الآخر لفرنسا وكان عبدالناصر بخلاف التأميم قد افسد على الانكليز حلف بغداد وكان قرارهم بالحرب الثلاثية في ٢٩ اكتوبر١٩٥٦ وهو الموعد نفسه الذي حدده وزيرا خارجيتي انكلترا وفرنسا للاجتماع مع وزير الخارجية المصري محمود فوزي.. وهاجمت إسرائيل سيناء وأمر جمال بسحب القوات المصرية منها وبدأت الحرب.

عودة إلى الشاذلي

يقول الشاذلي هجم الطيران الثلاثي على الطائرات المصرية وهي في أماكنها وكان باستطاعة جمال عبدالناصر أن يقف فوق سطح منزله ويرى بسهولة مطار ألماظة والنيران تشتعل في الطائرات وتنفجر.. في هذا الوقت كنت أنا قائد كتيبة مطلوب منه تنفيذ ما يتلقى من أوامر سواء اقتنع بها أو لم يقتنع.. وللعلم الكتيبة يتراوح عدد أفرادها بين ٥٠٠:١٠٠٠ فرد وتتكون من ٣ سرايا مشاة وسرايا معاونة للهاون والمدفعية المضادة للدبابات.. واللواء يتكون من ٣ كتائب مشاة وتكون قوته في حدود ٣:٤ آلاف جندي والفرقة يصل عددها إلى ١٥ ألف جندي.. ومعظم التشكيلات العسكرية في الجيوش تتم على هذا النحو بزيادة أو أقل قليلا وهناك طبعا وحدات للمشاة أو المدفعية أو المهندسين أو الاشارة ومع ذلك وصلت قواتنا التي توغلت في سيناء إلى ممر متلا وضربت عند ذلك وطلب

الانكليز أن يتم سحب قواتنا.. وتقرر بالفعل كما ذكرنا من قبل وكانت قوات فرنسية وانكليزية قد نزلت جوا في بورسعيد وقابلتها المقاومة الشعبية الباسلة وحاولت قواتنا منعهم من احتلال السويس.

وتأهبت للطيران إلى سيناء والنزول هناك خلف خطوط العدو ولما تم ضرب الطيران بما في ذلك الطائرة التي كنت سأستقلها مع الكتيبة وتحولت بذلك إلى وحدة مشاة عادية واتجهت فيما بعد إلى السويس ثم أخذوا سرية للمعاونة في صد الهجوم على بورسعيد وهي في حدود مئة فرد.

وهذه الحرب نستطيع أن نقول انها ساهمت في تقوية شوكة إسرائيل التي لم تحارب بالمعنى المفهوم.. لان الطيران الفرنسي والانكليزي تكفل بالجانب الأكبر منها.. وكانت حسابات جمال عبدالناصر أن انكلترا وفرنسا لن يقدما على الحرب بسهولة ولكن حدث غير ذلك ولذلك سحب قواتنا من سيناء لمواجهتهما.. وطبعا تدخل الاتحاد السوفييتي وأميركا لوقف هذا العدوان. وهنا يتحول الشاذلي إلى ناقد عسكري وينظر لحرب ٥٦ بعين المحلل فيقول: الهدف من أي حرب أن تنتصر على عدوك لكي تملي عليه شروطك ويتصرف وفقا لارادتك سياسيا ولو حدث غير ذلك فأنت خاسر حتما في هذه الحرب وقد دخلت انكلترا وفرنسا الحرب لاسقاط جمال عبدالناصر وتشجيع الشعب على ذلك وهو الهدف الذي لم يتحقق لان الشعب التف حول جمال أكثر وبذلك كان تعديهم العسكري بدون نتيجة سياسية بينما تحقق ذلك لجمال.. ثم انك تنظر إلى هذه المعركة التي دخلتها ثلاث دول.. ضد مصر بمفردها والتي قاتلت بسلاح روسي لم يتم التدرب عليه ولم يصل بكمياته المنتظرة وعلى ذلك بدأت العلاقات مع الاتحاد السوفييتي تأخذ مسارا جديدا بينما حدث الشقاق مع أميركا وكانت حربهما الباردة على أشدها وقانونها أن لم تكن معي فأنت ضدي وكان هذا يتم حتى داخل أميركا نفسها بما عرف (بالكارثية) وهكذا وجدت نفسي في بعثة إلى الاتحاد السوفييتي..

أمام مدرسة مختلفة تماما عن الأميركية التي سبق لي التعرف عليها.. وشاءت الأقدار لي أن تفتح أبواب اكبر قوتين في فترة زمنية وجيزة.. والبعثة العسكرية.. بالنسبة لي.. ليست مجرد تدريبات ودراسة لفترة معينة في علم بعينه ولكنها أسلوب حياة أيضا مع شعب ومكان وكان الخلاف انك في أميركا ترسل بضابط أو اثنين لكنك في الاتحاد السوفييتي ترسل بمئة وبذلك تصبح عملية التعليم سريعة لان هذا العدد عندما يرجع يقدم خبرته لغيره وبذلك تتسع الدائرة.. إلى جانب ذلك كان هناك خبراء سوفييت يحضرون إلى مصر لنفس الغرض أيضا.

وكان خيار جمال عبدالناصر في هذا التوقيت ذكيا وعمليا.. لان أميركا لن تدعم الجيش المصري بحيث يتفوق في قوته على إسرائيل مهما كانت الأسباب.. ومن هنا وجب أن نتجه إلى روسيا حيث تريد محاصرة المد الأميركي والاستعماري.. ولو عدنا بالذاكرة إلى الوراء في عام ١٩٤٧ سنجد أن روسيا أيدت قيام دولة إسرائيل ولكن بمقاييس السياسة ليست هناك ثوابت ومع ذلك تشكك الروس عندما حاول جمال أن يتقرب منهم على حساب أميركا وتمت أول صفقة سلاح بطريقة غير مباشر عن طريق تشيكو سلوفاكيا وكان السوفيت يدركون أن مصر قد تفتح لهم أبواب العالم العربي كلها.. التي أغلقها الأميركان في وجوههم.. نعم الامكانات العسكرية في أميركا أكبر بحجم مشاهدتي.. وهي في بعثاتها تهتم بجوانب فنية لأفراد.. لكن السوفيت يركزون على القيادات كما قلت وهذا ما يذكرنا بالفارق بين الاستعمار الانكليزي الذي كان يهتم بالموارد بينما الفرنسي يركز على الجوانب النقابية وقد تأثرت القيادات العسكرية المصرية بالفكر السوفييتي.. لكن المهارة المصرية كانت حاضرة ونادرة على الاستيعاب بل وتطوير ما تعرفه بأسلوبها الخاص.. لكن البصمة السوفييتية كانت حاضرة وموجودة بعد ١٩٥٦.

إلى الكونغو

مرة أخرى يأتي اسم الشاذلي متصدرا لأول قوة عسكرية مصرية تشارك في مهمة

تابعة للأمم المتحدة ومعنى ذلك أن نفوذ مصر وعبدالناصر بدلا من أن يتقلص سياسيا بعد معركة ٥٦ ازداد وتوسع وهذا هو الدليل حيث تحول إلى زعيم مصري وعربي وافريقي بعد أن مد يده إلى تحركات التحرر في كل مكان. ورغم أن الكونغو تبعد عن مصر خمسة آلاف كيلو.. لكن يد التعاون كانت ممدودة وهناك تظللها الأمم المتحدة.. والمدهش كما قال الشاذلي أن القوات المصرية سافرت إلى الكونغو بطائرات أميركية وهذا هو التناقض السياسي الذي يتعامل مع هذه الأمور بكل بساطة.. وكان الهدف دعم (لومومبا).. رغم توتر العلاقات المصرية الأميركية ونستطيع أن نفسر ذلك أيضا بان أميركا تعودت أن تتخلى عن حليفها اذا أدركت انه تحول إلى ورقة محترقة لا لزوم لها.. وقد تكرر ذلك في مصر مع الرئيس السابق مبارك أثناء ثورة ٢٥ يناير حيث كانت تخرج البيانات والتصريحات من البيت الأبيض تطالبه بالرحيل.. ناو أي الآن وتدعم الثورة عليه وهو المحسوب كأحد رجالها.. بل أن إسرائيل وصفته بالكنز الاستراتيجي بالنسبة لها.. ولابد أن يكون كذلك بالنسبة لأميركا بالتبعية. كانت الكونغو مستعمرة بلجيكية وقرروا الانسحاب وكان ضروريا أن تتواجد قوات تثبت لومومبا وتعوض الفراغ الذي أحدثه الانسحاب البلجيكي وتلك هي مهمة القوة المصرية في إطار الأمم المتحدة مع قوات أخرى ولان العملية تتم تحت علم الأمم الأميركية لا بأس أن تأتي طائرات لكي تأخذ الجيش المصري إلى «ليوفوويليت».. ولا نستطيع أن نفصل واقعيا بين دعم لومومبا.. وحفظ السلام في تلك المنطقة.. وأنا كقائد كتيبة مصري أعرف جيدا أن مهمتي مساعدة الدول الإفريقية لكي تنهض.. وبالنسبة للرائد سعد الشاذلي الذي جاء من تلك الأرض البعيدة يمثل بلدا بأكمله جيشه وشعبه بل ورئيسه.. وهو بطبعه يحب أن يتصرف بحرية ويكون سيد قراره.. لان عمل الضابط تحت من هو اكبر منه وله حق إصدار القرار النهائي.. يجعله مكبلا.. وليس معنى ذلك أن الرئيس أو القائد عليه أن يتصرف من تلقاء نفسه.. بل هي المشورة والتخطيط ويبدو أن جمال عبدالناصر

هو الذي رشحه لهذه المهمة دون غيره فهي تحتاج كتيبة بمواصفات خاصة وليس هناك من هو أفضل من المظلات بل زاد على ذلك أن أمر بصرف ٥٠ ألف دولار تكون تحت تصرف قائد الكتيبة في تلك البلاد البعيدة وهكذا اكتملت عند الشاذلي عناصر القيادة ماديا ومعنويا مع أن الأمم المتحدة هي التي تقوم على رعاية الكتيبة تمدها بالطعام ومصروف الجيب لكن هذا المبلغ لأي ظرف طارئ وكانت المفاجأة السارة هناك في ليوبوفيل استقبال رجل الشارع الكونغولي للجيش المصري وهو يحمل إعلام مصر مرحبا في إشارة إلى قوة مصر ورئيسها في إفريقيا وكان الشاذلي يحمل معه مجموعة مطبوعات عن مصر بالعربية والفرنسية لتوزيعها على الناس هناك.. ومن أنكر على عبدالناصر اهتمامه الإفريقي واتهامه بإهدار المال والرغبة في زعامة واهية على من يسأل أو يفكر بهذا النحو.. أن ينظر ماذا حدث لنا في مصر عندما تركنا أفريقيا عندما أدار الرئيس السابق حسني مبارك ظهره لها.. واصطفاف دول حوض النيل ولأول مرة ضد مصر مطالبة بإعادة توزيع أنصبة المياه.. وكانت بتدبير سوداني كما قيل وعلى ذلك أسرعت الوفود الشعبية تشد الرحال إلى دول حوض النيل.. بعد ثورة يناير ٢٠١١ لاستعادة الأرض والاهتمام بمنطقة لا غنى عنها تركناها لإسرائيل تتصرف فيها كما تشاء.

خارج السياق :

الفريق محمد أحمد صادق

تخرج الفريق أول محمد صادق من الكلية الحربية عام ١٩٣٩ عمل ضابطا في الحرس الملكي.

واستبقي في صفوف القوات المسلحة بعد تطهيرها عام ١٩٥٢ خدم في الفرقة الثانية بسيناء في حرب ٥٦، وككبير لمعلمي الكلية الحربية أوائل الستينيات، ثم ملحقا عسكريا بألمانيا الغربية حيث يحسب له انه من كشف الستار عن صفقة الأسلحة الألمانية لإسرائيل مطلع عام ٦٥ صيف ٦٦ كافأه المشير عامر باستنسابه مديرا للمخابرات العسكرية ليستأمنه على أمن القوات المسلحة اثر اكتشاف اختراق الإخوان المسلمين المحدود لها ضمن مؤامرة ٦٥.

والبادي أن أداءه في منصبه، كما امتحن في أزمة ٦٧، قصُر عن المطلوب لاسيما لجهة الانذار عن نوايا العدو وتوفير دقيق المعلومات عن امكاناته. لكنه استبقي في تطهير ٦٧ في ذات المنصب أمضى صادق في المخابرات سنوات ثلاث ونيف إلى أن وقعت حادثة الزعفرانة يوم ٩ سبتمبر ١٩٦٩.

يومها كان عبدالناصر مصحوبا بالفريق أول محمد فوزي وزير الحربية واللواء أحمد إسماعيل على رئيس أركان الحرب (من خلف الفريق رياض اثر استشهاده في مارس ٦٩ صاعدا من رئاسة هيئة العمليات) يحضرون مناورة حية لفرقة مدرعة حين وصلت أخبار نزول إسرائيلي برمائي على شاطئ خليج السويس في منطقة الزعفرانة.

أعلنت إسرائيل بفرقعة إعلامية مدوية أن قواتها الآن على أرض افريقيا، وأنها لم تواجه البتّة أية مقاومة مصرية. أمر عبدالناصر من فوره رئيس الأركان بالتوجه لموقع الحدث وادارة المواجهة من هناك على الطبيعة، لكن أحمد إسماعيل فضّل العودة للقاهرة مخالفا أوامر قائده ومقنعا نفسه بان أداء أفضل ينتظره من غرفة

العمليات عنه من الزعفرانة. استشاط عبدالناصر غضبا من فعلة رئيس الأركان فأمر بعزله في التو واللحظة ومعه قائد البحرية اللواء فؤاد ذكري، والذي فشل في تحريك قطعة بحرية واحدة تعترض الإنزال.

وفي مذكراته يقول الشاذلي:

في عام ١٩٦٣ تم تعيين صادق ملحقا حربيا في ألمانيا وكانت له على حد قوله عدة مهام خاصة منها ما يذكره بفخر من انه كان الابن الشرعي لعملية القاء القبض على قائد نازي كبير حيث أودعته السلطات الألمانية السجن رهن المحاكمة، ومن خلال المحنة التي كان يعيشها، قرر أن يرسل صديقته لي، لتعقد معي صفقة، ففي مقابل تهريبه من السجن، سأحصل على حقائب من الوثائق عن اليهود والصهيونية وإسرائيل. ودرست الأمر من كل أبعاده، بعد أن تيقنت من صدق الرجل وان الأمر ليس كمينا للملحق الحربي المصري. ورأيت أن الصفقة متكافئة، قررت تعيين صديقة القائد سكرتيره بمكتب الملحق الحربي المصري، لسهولة الاتصال ونقل المعلومات والتعليمات. ووضعت خطة لتهريب القائد وحارسه معا، بعد أن وافق الحارس على الهرب وتهريب القائد، وفي مزرعة استأجرتها من أجل خطة التهريب كانت تنتظرهما طائرة صغيرة بروبيلر، لتنقلهما إلى مزرعة خيول بالقرب من الحدود السويسرية. وفي المزرعة كان في انتظار الجميع جوازات سفر جديدة وبطاقات سفر إلى القاهرة، وهناك كانت في انتظارهما مجموعة خاصة من المخابرات العامة.

وبعد سفرهما نظمت سفر أطفالهما والمربية الخاصة، ليقيم الجميع معا بالقاهرة. وسلم الرجل الوثائق للقاهرة، وكانت قيمتها عالية. وللقصة في مصر بقية - فالقائد الألماني بعد أن استقرت أوضاعه بالقاهرة، اكتشف الجميع انه زير نساء، وانه كان على علاقة بكل من صديقته والمربية، واكتشفت صديقته ما يجري فما كان منها الا أن أخبرت صحافيا ألمانيا، يقيم بالقاهرة ويعمل بها، عن وجود

القائد النازي الهارب بالقاهرة. وخططت مع الصحافي لتصويره بما يؤكد صدق قصته الصحافية، وفعلا تمكن الصحافي من التقاط صورة له بفندق مينا هاوس.

وذاع الخبر وفوجئت سلطات الأمن الألمانية بوجود القائد الهارب في القاهرة، وكانت الشكوك قد اتجهت إلى الاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية. وحضر إلى القاهرة أكثر من ٧٠ صحافيا ومصورا ألمانيا وبصحبتهم عدد من المسؤولين بالمخابرات الألمانية، وروت لهم السكرتيرة كل ما عرفته، وكان ما تعرفه قليلا جدا، ولكن أهم ما اكتشفته السلطات الألمانية أنني طرف في هذه القضية. وفي مقابل اعترافها، حصلت من السلطات الألمانية على قرار يعفيها من كل المسؤولية، كما سبق أن تعهدوا لها. وبعدها سعى الصحافيون ورائي دون جدوى. وانتهت القصة بان وافق القائد الألماني على تسليم نفسه لألمانيا الغربية لاستكمال فترة سجنه، ولم تعترض القاهرة على قرار القائد الألماني.

لم الشمل

وفي موضوع آخر، حاول صادق، قبل سفره إلى ألمانيا، جمع المعلومات المتاحة وقراءة التقارير السياسية والأمنية الخاصة بالجالية المصرية، ومن بين ما سمع - وفقا لروايته اتهام الطلبة المصريين الموجودين بألمانيا، بالانتماء للإخوان المسلمين، أو على الأقل، العمل على نصرة قضية الإخوان، نتيجة نشاط سعيد رمضان ورجاله الموجودين بألمانيا،

بل رأيت أن هذا الاتهام قد تحول إلى اقتناع لدى المسؤولين. وأدى هذا الاقتناع إلى التوقف عن بحث واستقصاء الموقف، أو محاولة معرفة الأسباب التي أدت إلى ذلك، هذا فيما اذا كان هذا الاتهام يمثل الحقيقة. ورفضت هذا الاتهام وهذه الصورة. وبعد أن وصلت ألمانيا،

وحتى قبل أن أستقر، بدأت أتصل بهم وأدعوهم وأحاورهم وأناقشهم وأجيب

على أسئلتهم. كانوا في حاجة للرعاية، فالبعثة التعليمية والمكتب الثقافي والسفارة، ككل، تنأى عنهم ولا يقوم أي من هؤلاء المسؤولين بدوره تجاههم.

وكان الطلبة، من جانبهم، ساخطين متبرمين من هذا الموقف السلبي للمسؤولين المصريين.

بل كانت لديهم شكوك عميقة في أن معظم الموجودين تابعون لأجهزة الأمن ومن كتبة التقارير. وحاولت تصحيح هذه الأوضاع بقدر ما أستطيع، وتدخلت وضغطت واتصلت بالقاهرة من أجل هذا الهدف. وكانت الغالبية منهم قد ابتعدت كثيرا عن الوطن، وافتقدوا بذلك أسرهم التي غابوا عنها طويلا.

وكان معظمهم يرفض العودة للقاهرة خشية عدم الخروج منها مرة أخرى لأي سبب من الأسباب. ومن لم يسافر للقاهرة استفاد من درس البعض الذي سافر للزيارة ولم يتمكنوا من الخروج. وساهم البعد عن الوطن في الانقطاع عن الأخبار، وكان مصدر معلوماتهم أجهزة ووسائل الإعلام الأجنبية، بكل ما هو معروف عن موقفها السلبي من مصر ومن جمال عبدالناصر. ولم أخف عنهم الحقيقة، أجبت عن أسئلتهم، وأرضيت فضولهم وشوقهم للمعلومات وبحثهم عن حقيقة ما يجري في الوطن. وحاولت أن أزيل الشبهات التي رأوا أنها تحيط بمستقبلهم. وبالاتصال المباشر والحوار تولدت علاقة صداقة واحترام بيننا ولم أحاول، من قريب أو بعيد، أن أشير إلى الصورة المرسومة لهم أو الاتهامات الموجهة إليهم.